محمد إقبال ودوره السياسي والوطني

١٨٧٣ - ١٩٣٨م

(أ) سيرته وتكوينه العلمي والثقافي

د. مصطفى عقيل

قسم التاريخ - جامعة قطر

من المعروف أن شاعر باكستان وفيلسوفها الكبير محمد إقبال حظى بدراسات عديدة من قبل المتخصصين في الشعر والأدب من ناحية ، باعتباره شاعراً كبيراً أثر في تاريخ وآداب أمته ، ونال نفس القدر من الاهتمام من حيث دراسة فلسفته وتراثه . سواء في دراساته الفلسفية ذاتها ، أو فيما اعتنقه أو بشّر به من أفكار فلسفية . أو ما إستندت عليها حياته جميعها من فلسفة خاصة . وربما لم يحظ إقبال، بإعتباره سياسياً ووطنياً ، بنفس القدر من الاهتمام من الدراسين والمتخصصين رغم دوره العظيم في تأسيس باكستان ونضاله الوطني لخلق وطن للمسلمين في شبه القارة الهندية .

لذلك سوف تهتم هذه الدراسة بشكل خاص بدور إقبال السياسي والوطني ، وإن كان هذا الدور لا ينفصل عن فلسفته الخاصة التي اعتنقها ، كما أنه عبر عن هذا الدور ومارسه من خلال أشعاره وقصائده الوطنية والسياسية التي ساهمت في بلورة فكرة خصوصية وطن للمسلمين في شبه القارة الهندية . ومن هنا سوف تسلط هذه الدراسة الضوء على تكوين إقبال العلمي والثقافي ثم تنتقل لدراسة دوره ونضاله السياسي .

❋❋❋

أن محمد إقبال ، هو ابن محمد نور بن محمد رفيق ، الذي يعود نسبه إلى براهمة كشمير . حيث كانت أسرته في قرية لوهر Looehar بكشمير ثم هاجرت منها إلى «سيالكوت» على حدود البنجاب خوفاً من الإضطهاد الهندوسى وسعياً وراء الرزق.

والمعروف أن السيخ كانوا منذ بداية القرن التاسع عشر قد أسسوا حكمهم في البنجاب بعد طرد الأفغان من كشمير بمساعدة أحد رؤساء الدوجرا Dogra (*) الذي استطاع بين عامي ١٨٣٧ ، ١٨٣٩م توسيع حكمه بالاستيلاء على أجزاء من شمال التبت ، ولكن بعد سنوات أعلن الانجليز الحرب على السيخ طالبين منهم رفع قبضتهم عن كشمير . فاستغل رؤساء الدوجرا الأمر وقدموا للانجليز عرضاً مالياً ليمتلكوا كشمير دون حلفائهم السيخ . وبالفعل وافق الانجليز في عام ١٨٤٦م على توقيع اتفاقية صارت كشمير بموجبها تابعة للمهراجا جلاب Gulab أحد روساء الدوجرا .

وهكذا بدأ التاريخ الحديث لكشمير ، التي كان الهندوس فيها تحت حكم المسلمين لنحو خمسمائة عام مضت ، فصاروا الآن ملاك الاقليم وحكامه ، وسرعان مابدأوا سياسة تعسفية شاملة ضد المسلمين . مما اضطر الكثير من العائلات المسلمة إلى الهجرة إلى البنجاب ، وكان من بين هذه العائلات عائلة الشيخ رفيق جد محمد إقبال ، الذي ترك قرية أجداده «لوهر» في كشمير حوالى عام ١٨٥٧م واستقر في سيالكوت مع أولاده . ومع أن العائلة لم تعد إلى كشمير ، فإن ذكرى الوطن وأرض الأجداد لم تغرب عن مخيلة إقبال أبداً [١] .

لقد كان أسلاف إقبال وأجداده ينتمون إلى جماعة من البانديت الكشميرين وقد اعتنق أحد أجداده الإسلام في عهد السلطان زين العابدين الياس بادشاه (١٤٢١-١٤٧٣م) وكان تحوله من البرهمية إلى الإسلام على يدى الشيخ شاه همدانى ، وهو من أئمة المسلمين في عهد الدولة المغولية كبرى الدول الإسلامية بالهند . والمعروف أن إقبال كان يفخر بأنه من سلالة برهمية ، وأنه مع ذلك أدرك حكمة الفرس والترك وبلغ من الالمام بحقائق الإسلام وأسراره شأوا عظيماً «إننى كافر هندى ، فانظر شوقى وذوقى ، ملء قلبى الصلاة والسلام وعلى شفتى الصلاة والسلام » [٢] .

لقد كان جد إقبال بائعاً متجولاً للشولات الكشميرية (**) Kashmiri Shawls

(*) من العشائر الهندية التي كانت تحكم أجزاء من ولاية جامو وكشمير .

(**) الشولات : جمع شال وهو غطاء من الصوف يستعمل في شد القارة الهندية خاصة في فصل الشتاء.

مما يدل على رقة حاله وإنتمائه للطبقة الدنيا ، وقد علم ابنه الشيخ نور محمد (والد إقبال) مهنة الخياطة وأشغال التطريز ، أما ابنه الآخر وهو الشيخ غلام قادر فقد شغل عملاً غير فني بدائرة الري ، والثابت أن الأخوين لم يحتازا أي تعليم رسمي ، وككثير من العائلات الكشميرية التي جاءت بعدهم ، انخرطت العائلة في الطبقات العمالية في أنحاء الريف البنجالي ، ولم يكن والد إقبال يتمتع بموهبة الذكاء الفطرى فحسب ، بل كان يحظى بجمال الطلعة وحسن الخلق ، وكان محترماً من قبل شيوخه لتدينه ، مستمراً على مصاحبة الصوفيين ، حتى لقد اعتاد أصدقاؤه على أن يسموه «بالفيلسوف المثقف» . ورغم مهارته في حرفته ، فإنه قاسى أياماً صعبة في إعالة عائلته الكبيرة ، فلم يتم ولده الأكبر (عطا محمد) دراسته الثانوية ، حتى تزوج من ابنة جندى تقاعد في جيش حكومة الهند البريطانية ، حيث نجح صهره في تعيينه بالجيش ، وبعد سنوات التحق بمدرسة الهندسة في روكى ، وتخرج منها ليعمل كرئيس للعمال بدائرة الخدمة العسكرية ، وتكمن أهمية ذلك النجاح للشقيق الأكبر لإقبال ، في أنه مهد الطريق أمام تقدم إقبال ورفع المستوى الاجتماعى للعائلة ، من الطبقة العمالية إلى الطبقة الوسطى [٣] .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ميلاد محمد إقبال ، وإن كان تاريخ ميلاده المعروف به هو نوفمبر عام ١٨٧٧م ، كما سجل هو نفسه في سجل حياته الذي صدر به رسالة للدكتوراه ، وإن كان هناك من يذكر اعتماداً على السجلات الرسمية أنه ولد عام ١٨٧٣م . وأيا كانت الدقة في الروايات المختلفة فإنها تحصر تاريخ ميلاده بين عامى ١٨٧٣ و ١٨٧٧م [٤] . ومن الثابت أن والد إقبال كان ، على بساطته وفطرته وتدينه ، أول معلم له ، فعلى يديه تعلم مبادئ القرآن ، ثم ألحقه بمكتب لتعليم القرآن حيث استزاد من الحفظ والتفقه ، وقد بدا أثر ماحفظه عندما قدر له أن يعلمٌ القرآن ، كما كانت تجرى آيات الذكر الحكيم على لسانه في أحاديثه ومحاضراته وكتاباته .

أما عن مدينته سيالكوت فالمعروف أن الانجليز قد هزموا السيخ وأسسوا سلاماً بريطانيا في البنجاب منذ عام ١٨٤٦م ، أي قبل مولد إقبال بنحو ثلاثة عقود ، وبعد عام ١٨٥٧م نجحت حركة عليكرة بقيادة السيد أحمد خان (١٧٩٨ - ١٨١٧) في أن تجعل التعليم الحديث للمسلمين في البنجاب ، مطلباً عاماً وشعبياً ، وكانت البعثات التبشيرية

الغربية ، وخاصة التابعة للكنيسة الاسكتلندية وكنائس الإصلاح الدينى ، قد أسست لها كلية عرفت باسم «كلية البعثة التبشيرية الاسكتلندية» ، والتي تعرف في الوقت الحاضر بكلية مارى، وكانت هذه الكلية تعطى إلى جانب دورسها ، محاضرات في اللغتين العربية والفارسية ، لمجاراة التقاليد الإسلامية في الهند ، فضلاً عن الرغبة في جذب أعداد ضخمة من الطلاب الصغار إليها ، بينما سادت اللغة الانجليزية ، وصارت واسطة التعليم في المدارس ، وصارت اللغة الرسمية لحكومة الهند البريطانية . وإن كان المسلمون في البنجاب يدرسون الأردية تحت تأثير حركة عليكرة [٥] .

هكذا كان جو الهند ، قبيل مولد إقبال ، يموج بتيارات ثقافية مختلفة ، فمن حركة السيد أحمد خان في عليكرة ، التي تبنت الدعوة لإصلاح المجتمع الإسلامى الهندى على أساس تقليد المجتمع الأوربى والاستفادة من تقدمه وحضارته ، إلى حركة «علماء ديوبند» التي دعت إلى الدفاع عن عقيدة المسلمين وأخلاقهم في مواجهة المد الغربى ، إلى «جمعية العلماء» الداعية للتقريب بين الحركتين السابقتين المسلمتين ، وتأسيس مدرسة دار العلوم، التي جمعت بين إصلاح مناهج التعليم لتكون شاملة للكتاب والسنة ، ثم للأخذ بالعلوم العصرية والمعارف الحديثة لتخريج مثقفين بالثقافتين . كما شهدت الفترة ظهور أعلام مثل شبلى النعمانى وأكبر إله أبادى وألطاف حسين حالى وأبو الكلام آزاد وغيرهم، منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى العقود الأولى للقرن العشرين .

وبين هذه التيارات والأجواء العلمية والثقافية ولد إقبال ، بعد أن تمهّد الطريق لتكوينه وثقافته ، بجهود هؤلاء العلماء والأدباء ، الذين كانوا قد قطعوا شوطاً كبيراً في أداء رسالتهم ، حين أدركهم إقبال في بداية نشأته .. لقد مهد له العلماء السابقون ، وخاصة شبلى وخواجه حالى وأكبر إله آبادى ، الطريق له في الأفكار واللغة والأسلوب وفتحوا آفاق المعرفة ، وقد جاءت «المد والجزر في الإسلام» لألطاف حسين حالى بمثابة تمهيد للاتجاه الدينى والقومى في شعر إقبال ، كما جاءت فكرة نقد الحضارة الغربية بأسلوب شعرى بليغ متأثرة إلى حد كبير بشاعرية أكبر إله آبادى ، كما كان الإتجاه الإسلامى العالمى والتأكيد على تفوق الحضارة الإسلامية مديناً إلى حد ما لأفكار العلامة شبلى ..

وكان إقبال قد التقى بهؤلاء الكبار ونال إعجابهم وتشجيعهم ، فضلاً عن تأثير شخصية بارزة كان لها دور كبير في توجيه وثقافة مسلمي الهند وسياستهم خلال العصر الذي عاش فيه إقبال وهي شخصية مولانا أبى الكلام آزار (١٨٨٨ - ١٩٥٨م) [٦] .

التحق إقبال ، بعد دراسته الأولية للقرآن الكريم ، بمدرسة البعثة الاسكتلندية Scotch Mission College في سيالكوت ، حيث كان يشرف على تعليمه وتأديبه بها «مير حسن» الذي كان أستاذاً للغتين الفارسية والعربية وآدابهما ، وفي هذه المدرسة عنى بتعلم العلوم الدينية ودراسة اللغتين ، كما بدأ محاولاته الأولى في قرض الشعر ، خاصة بالأردية ، لغة موطنه في البنجاب ، وكان يساعده على تنقيح شعره أحد شعراء الأردية النابغين يدعى (داغ) وعموماً أنهى إقبال دراسته بهذه المدرسة عام ١٨٩٥م حين بلغ اثنين وعشرين عاماً من عمره [٧] .

وقد لاحظ أستاذه ووالداه مقدرته الفائقة على التعلم ، فشجعوه على متابعة دراسته العليا في نفس العام ، فالتحق بالكلية الحكومية في لاهور ، حاضرة البنجاب ، لاستكمال دراسته وكانت هذه الكلية حتى ذلك الوقت أحسن الكليات للدراسات العليا في شبه القارة الهندية، ومنها حاز إقبال شهادته الجامعية الأولى (الليسانس) بتفوق ملحوظ عام ١٨٩٧م، وتمثلت الموضوعات التي درسها حينذاك في الآداب العربية والانجليزية ، والفلسفة ، وكان فوزه بامتياز قد أهله للحصول على منحة للاستمرار في الدراسة حتى درجة الماجستير في الفلسفة ، وبعد عامين (١٨٩٩) حصل على الميدالية الذهبية ، لأنه كان الطالب الوحيد الذي اجتاز الامتحان الشامل الأخير لهذه الدرجة [٨] .

وخلال دراسته للفلسفة كان يشرف عليه الاستاذ توماس أرنولد، الذي كان أستاذاً للفلسفة الإسلامية في جامعات لندن وعليكرة ثم الكلية الحكومية بلاهور ، وكان أرنولد دارساً محباً للفلسفة وللحضارة الإسلامية ، والواقع كان تأثيره على تلميذه كبيراً في الكلية الحكومية ، فقد شجعه على المعرفة العميقة للفلسفة الغربية والفهم العميق للثقافة الإسلامية والأدب العربي، وقد ساعد هذا المزج الملفت على تطوير فكر وتوجهات إقبال خلال هذه المرحلة، كما أصبح أرنولد جسر الصداقة بين شبلى النعمانى وإقبال وعندما نشر إقبال دراسته الفنية عن علم الاقتصاد راجعه شبلى ونشره له كما أوصى أرنولد إقبال

بضرورة استكمال دراسته العليا في أوربا. وفي عام ١٩٠٤م عندما غادر أرنولد لاهور إلى لندن، نظم إقبال أبياتاً رائعة بعنوان «نحيب الفراق» أعرب فيها عن إخلاص التلميذ لأستاذه ، وتصميمه على اللحاق به في انجلترا من أجل العلم والمعرفة .

وفي مايو ١٨٩٩م ، بعد أشهر قليلة من تخرج إقبال وحصوله على الماجستير في الفلسفة ، عين مدرساً للغة العربية بجامعة الكلية الشرقية بلاهور ، وكان مطلوباً منه أن يدرس كذلك التاريخ والاقتصاد ، ومن المحتمل أن يكون للسير توماس أرنولد (الذي كان نائباً لمدير الكلية) أثر في تعيين إقبال ، حيث لم يكن بعد قد حصل على المتطلبات النهائية لدرجة الأدب العربية ، كما أن مجلس الجامعة في مداولاته في يونيو ١٨٩٩م قد أشار بأن إقبال جاء الأول سواء في امتحانات الليسانس أو الامتحانات التمهيدية في اللغة العربية ، ومن يناير عام ١٩٠١م حتى مارس ١٩٠٤م ، عندما استقال من وظيفته كمدرس ، كان قد درّس ، بصورة متقطعة ، اللغة الانجليزية ، كأستاذ مساعد في الكلية الإسلامية ، والكلية الحكومية بلاهور . وخلال هذه الفترة أيضاً ، درّس لبضعة شهور في الكلية الشرقية ، كعضو هيئة تدريس معاون في جامعة البنجاب ، حيث لم يكن له الحق في سكن مريح في البيوت المحيطة بالجامعة أو الكلية الحكومية ، لأن المنازل كانت محجوزة جميعاً للأساتذة الانجليز [٩] .

لقد كانت الفترة من عام ١٩٠٠ - ١٩٠٥م بالنسبة لإقبال فترة مليئة بالآمال والاحباطات على حد سواء ، فالمهنة الاكاديمية التي كانت تناسبه قد فقدت حيوتها ، كما كان المقام الاجتماعي لمهنة التدريس متواضعاً بالنسبة لسلم الوظائف ، بينما كانت وظائف الخدمة المدنية ، وممارسة مهنة كالمحاماة تدر دخلاً مالياً أكبر . فضلاً عن المكانة الاجتماعية الأعلى ، يضاف إلى ذلك أن التعليم كان تحت سيطرة وإشراف الانجليز ، ومن ثم كانت حرية الفكر وحرية التعبير محدودة ، وبالنسبة لإقبال الطموح ، كان دوره المهنى خانقاً لطموحه ، وكان يظهر عدم رضاه عن وظيفته في رباعياته الشعرية التي امتلأت هجاء وسخرية.

ومن المهم أن نشير كذلك إلى دراسته للقانون ، في ذات الوقت الذي كان يدرس فيه لدرجة الماجستير في الفلسفة ، وإن كان ميله للفلسفة أكثر من ميله للقانون ، وفي

ديسمبر عام ١٩٠٨م لم ينجح في الامتحان الأول للقانون ، فلم يحصل على درجات كافية في فلسفة القانون ومبادئه ، وبعد عامين تقدم بالتماس ليسمح له بحضور الامتحان ثانية، دون حضور المحاضرات ، فرفض التماسه ، ومن المحتمل أن يكون هذا الرفض هو الذي جعله يصر على دراسة القانون في انجلترا . ومن الجدير بالإشارة أن إقبال حاول عام ١٩٠١م أن يلتحق بوظائف الخدمة المدنية في البنجاب ، فتقدم بطلب دخول امتحان المناقشة على وظيفة مساعد حاكم (E.A.G) ، ولكن لم تنجح المحاولة لأن اللجنة الطبية رفعت اسمه من القائمة لأسباب صحية . وقيل يومئذ أنه كان ضحية للجنة الطبية التي كانت مع المرشح الهندوسي للوظيفة .. وقد سبب ذلك لإقبال معاناة شديدة ، وخاصة بعد أن شعر بأن بنية النظام الاجتماعي للهند المستعمرة لايسمح له بتحقيق طموحاته . وقد أثبتت الأيام فيما بعد ، أن فشل إقبال في الحصول على الوظيفة ، كان خيراً بالنسبة له ، فوظيفة مساعد حاكم لم تكن تحقق له إلا نجاحاً محدوداً يجعله يقضى ما تبقى من عمره في مجاهل ريف البنجاب ، كقيصر صغير لإدارة بريطانية استعمارية ، مما كان سيقضى على مستقبله [١٠] .

وهكذا نلاحظ أن إقبال ، بعد تكوين علمى استمد أصوله من القرآن الكريم والثقافة الإسلامية ، وآداب اللغتين الفارسية والعربية ، واكتمل تخصصه بدراسة الفلسفة الإسلامية دراسة علمية واسعة ، أحرز خلالها درجاته الجامعية العليا ، قدر له أن يلج ميدان الحياة العملية معلماً في الكليات المختلفة ، وخلال هذه المرحلة اشتهر إقبال بسعة اطلاعه ، وبأشعاره ، وعرفته المجامع العلمية والأدبية ، وذاع شعره الذي كان يلقيه في جماعة «حماية الإسلام» بلاهور (أنجمن حماية إسلام) ، فضلاً عن نشر شعره بالصحف ، حيث كان يتناول فيه القضايا السياسية والاجتماعية ، وقد مارس خلال هذه المرحلة كذلك ترجمة الشعر عن الانجليزية .

والملاحظ كذلك أن إقبال خلال هذه المرحلة من حياته قد صنف كتاباً في «علم الاقتصاد» باللغة الأردية ، وإن كان البعض يرى أن فكر إقبال الاجتماعي والاقتصادي قد تكون منذ أوائل عام ١٩٠٣م ، أى قبل أول اتصال له بأوربا (١٩٠٥ - ١٩٠٨م) وقبل الثورة البلشفية في روسيا (١٩١٧م) بكثير ، فقد صرح إقبال في كتابه الصادر عام

١٩٠٣م ، أنه منحاز إلى جانب الفلاحين والعمال والطبقات المضطهدة ، وأنه كان صاحب برنامج لحل مشاكل الفقر والبطالة (١١) .

كنا قد ألمحنا إلى أن أستاذه توماس أرنولد قد أشار عليه ، قبل رحيله عن الهند ، بأن يكمل دراسته العليا في أوربا ، ولما كان طموح المعلم الشاعر الشاب أكبر مما وصلت إليه رحلته ، عقد العزم على إرتياد آفاق أوسع للمعرفة ، فرحل إلى أوربا لتبدأ مرحلة ثانية من مراحل تكوينه العلمى والفكرى خارج وطنه ، فالتحق إقبال بجامعة كمبردج لدراسة الفلسفة ، وهناك تتلمذ على يد الأستاذ ميكتاكرث ، واستطاع الحصول على درجة علمية في الفلسفة والأخلاق .

ومن بريطانيا رحل إلى ألمانيا ، حيث تعلم اللغة الألمانية في زمن وجيز والتحق بجامعة ميونخ ، حيث أعد رسالته المعروفة ، التي حصل بها على الدكتوراه ، عن «تطور فلسفة ما بعد الطبيعة في فارس Development of Metaphysics in Persia عام ١٩٠٨م ، والتي نشرها فيما بعد في كتاب أهداه لأستاذه أرنولد ، ومن ألمانيا قفل راجعاً إلى إنجلترا ، ليدرس القانون ، إذ استطاع اجتياز امتحان يؤهله للاشتغال بالمحاماة ، فضلاً عن تلقيه دروساً في مدرسة العلوم السياسية فترة ، وخلال وجوده في لندن هذه المرة ، اختاره أستاذه أرنولد لينوب عنه في التدريس بجامعة لندن ، خلال قيامه باجازة ، فكان ذلك مبعث اعتزازه وثقته بنفسه ومكانته .

ومن الجدير بالإشارة كذلك أن إقبال خلال رحلته العلمية والثقافية في أوربا (١٩٠٥- ١٩٠٨م) التقى بكبار المفكرين والمثقفين والكتاب ، وتداول معهم قضايا العلم والفلسفة ، مما شكل رافداً هاماً من روافد تكوينه الثقافي ، وقد ألقى خلال إقامته في أوروبا محاضرات عن الإسلام وحضارته ، أثارت الإعجاب والتقدير ، ونشر بعضها في كبريات الصحف ، ورغم كونه عرف الحضارة الأوربية ونهل منها ومن معارفها وثقافتها ودرس وتعلم ، حتى صار ضليعاً في الفلسفة الغربية وطرائق البحث ، وقاوم بشدة ، بعد عودته للهند ، القوى التقليدية التي أحس أنها تحطم القوة الحيوية لشعبه ، وطالب بأن يسارع الهنود إلى فهم الحضارة الغربية وأن يكونوا بأنفسهم تلك القوى من الإدراك العقلانى الذاتى التي جعلت أجدادهم عظماء يوماً ما (١٢) .

بالرغم من هذا الإعجاب المبكر من جانب إقبال بالحضارة الغربية ، إلا أن آراءه عسكت نظرة نقدية أكثر نضجاً ووعياً فيما بعد ، مما أطاح بهذا الإعجاب ، فلم يعد يفتنه بريقها ، خاصة بعد أن رأى ما فعله الأوربيون بوطنه ، لقد كان عليه أن يتعلم وأن ينظر ويعتبر ، دون أن يتخلى عن جذوره وأصوله الثقافية والحضارية ، وهو ما سيتضح من رسالته في الحياة فيما بعد.

وهكذا اعتمد إقبال قاعدته الأولى على ثقافته الإسلامية والوطنية في مجالات اللغة والأدب والفلسفة ، وكون ذخيرة كبيرة انفتح بها على ثقافة الغرب وحضارته ، مستفيداً من انجازاته العلمية ، ومتخصصاً في الفلسفة ، معبراً بالشعر عن فكره وفلسفته ، فضلاً عن دراسته للقانون وعلوم السياسة والاقتصاد ، مما سيؤهله فيما بعد للدور الكبير الذي سيضطلع به في تحرير بلاده [١٣] .



عاد إقبال إلى وطنه عام ١٩٠٨م بادئاً رحلة حياته العملية على ضوء تكوينه العلمي والثقافي الجديد ، والواقع أن دراسته للقانون قد أهلته للاشتغال بالمحاماة ، فبدأ صفحة جديدة من حياته مشتغلاً بها ، ليكسب رزقه ، رغم أنه كان يدرك في قرارة نفسه ، بحكم طموحاته وأحلامه وتكوينه ، أنه لم يخلق لمهنة المحاماة ، لقد كان إقبال يدرك أنه خلق لمهمة أجل وأعظم من هذه المهنة ، وإن كان قد آثر الاشتغال بها ليكسب منها ما يحتاجه فحسب، وهذا يفسر كيف أنه عمل بها على فترات متقطعة من حياته حتى عام ١٩٣٤م، عندما اضطره المرض إلى التخلى عنها تماماً .

ويقول «رياض حسين» وهو من كبار دارسيه ، أن إقبال لم يعمل إلا القليل لتطوير ممارسته للقانون ، وأنه كتب مرة إلى والده ، بعد اشتغاله بالمحاماة ، أنه مارس المحاماة لأنه قرر ألا يكون دخله المالى من بيع أشعاره ، لأن الشعر هو هبة الله ، ولا علاقة له بأى مجهود جسمى ، ويجب أن يمارس في خدمة البشر ، لا الارتزاق ، وكان إقبال يحصل على نحو ألف روبية في الشهر من عمله بالمحاماة ، وهو دخل متواضع ، حيث كان يرفض قبول أية قضايا تأتيه بعد اليوم العاشر من الشهر ، مكتفياً بما يسد نفقاته [١٤].

ومع ذلك لم يتخل إقبال عن التدريس ، بحكم أنه كان بتكوينه العقلى والنفسى معلماً ، فكان يحب التدريس كثيراً ، ومن ثم قبل أن يدرس في الكلية الحكومية - التي سبق أن تعلم بها - وقضى بها نحو عام ونصف ، ألقى خلالها دروسه في الفلسفة والأدبين العربي والانجليزى ، لكن نفسه لم تطق الاستمرار في الكلية ، فاستقال منها مفسراً ذلك بقوله «إن خدمة الانجليز عسيرة ، وإننى لا أستطيع أن أحدث الناس بما في نفسى مادمت في خدمتهم» ولأن إدارة الكلية كانت انجليزية ، آثر إقبال الحرية والعمل الحر الذي توفره له المحاماة ، ليقول ويفعل مايشاء دون قيد أو حرج .

لقد اختار إقبال حرية الرأى وانحاز لها ، مؤثراً الجهاد بقلمه فرحل إلى كليات عديدة، يحاضر فيها ويعلم ، وإن كان بغير انتظام في صفوفها ، وربما متطوعاً ، فضلاً عن كتابة التقارير لاصلاح التعليم ونظمه ومؤسساته ، خاصة في الكلية الإسلامية بلاهور ، والجامعة الملية في دلهى ، كما ألقى محاضراته في مدراس عام ١٩٢٨م ، وكذلك في جامعات نيسور والله أباد وعليكرة ، وقد استفاد إقبال من تضلعه في الفلسفة الغربية وطرائق البحث ، واستطاع بكتاباته ومحاضراته ومؤلفاته أن يحظى بمكانة لا ينازعه فيها أحد ، باعتباره أحد المفكرين المسلمين المحدثين ، كما أخذ على عاتقه مقاومة القوى التقليدية العقيمة ، والرافضة للتجديد ، التي أحس أنها تحطم القوة الحيوية لشعبه ، لذلك دعا إلى فهم الهنود للحضارة الغربية ، والاستفادة منها على نحو ماأشرنا [١٥] .

وقد تناولت محاضراته قضايا تجديد الفكر الدينى في الإسلام ، ثم جمعها فيما بعد في كتاب طبع أول مرة في لاهور عام ١٩٣٠م ، ثم صدر في طبعة منقحة عام ١٩٣٤م في لندن تحت عنوان :

" The Reconstruction of Religious Thoughts in Islam, London 1934 " .

وهذا الكتاب الهام يكشف عن دراسة واسعة للعلوم الحديثة وللفكر الفلسفى ، وربما يعتبر أهم محاولة لخلق فلسفة جديدة في الإسلام حتى زمنه [١٦] .

وهو بشكل عام من الكتب الهامة التي تناولت موضوعها بمنهج علمى رصين ، وقد ذاعت شهرته حتى اعتبره البعض أعظم ما كتب إقبال في الفلسفة .. وقد اتضح من خلاله

أن إقبال قد طوّر أفكاره بشكل منهجي ، واستخدم فيه الحوار النقدى مع العلوم الحديثة ، ليصل إلى رؤية ثاقبة لهذه العلوم من خلال نظرة إسلامية جلية . والواقع أن إقبال منذ عام ١٩٢٣م اعترف به كمفكر وكاتب كبير بين أبناء شعبه ، وقد أهله هذا لمنحه لقب فارس ، وتحول إقبال شيئاً فشيئاً من فيلسوف صرف وباحث في الفلسفة التجريدية إلى سياسى بارع ، كما منحته جامعة عليكرة لقب الدكتوراه تقديراً لمكانته في الأدب واعترافاً بفضله، والمعروف كذلك أن حكومة البنجاب الانجليزية منحته لقب «سير» ، وأنه قبله بعد تردد ، مما عرضه للأقاويل من قبل خصومه ، بيد أن هذا اللقب لم يكن له أثر في نفس إقبال وأعماله، ولم يؤثر على موقفه من الانجليز باعتباره ثائراً يهدف إلى تحقيق استقلال بلاده وحريتها [١٧] .

واستكمالاً لمتابعة سيرته ، قبل دراسة دوره في تحرير مسلمى الهند وإقامة دولة خاصة لهم ، ينبغى الإشارة إلى أنه رغم اشتهار إقبال بكونه «فيلسوفاً» و «شاعراً» ، حتى أن الكثير من الكتابات التي تناولته نعتته بهاتين الصفتين على الأغلب ، فإن الرجل كان سياسياً بارعاً ، وزعيماً من طراز فريد ، فرغم أن شعره قد أشعل ثورة في نفوس شعبه على السلطات البريطانية في الهند ، حين رأى في الشعر وسيلة لنقل رسالته إلى أولئك الملايين الذين كانوا أقل تذوقاً بالأسلوب الخطابي العادي ، إلا أن دوره تخطى ذلك عندما تحول إلى سياسى عملى كما سيتضح لنا فيما بعد وصار نائباً في الجمعية التشريعية للبنجاب منذ عام ١٩٢٦م ، وساهم في تأسيس حزب الرابطة الإسلامية ، وترأس اجتماعاته عامى ١٩٣٠ ، ١٩٣٢م ، ومثل بلاده في مؤتمر المائدة المستديرة بلندن بين عامى ١٩٣١ ، ١٩٣٢م ، وسافر إلى بيت المقدس حيث حضر مؤتمراً إسلامياً ، وكان لأعماله وأقواله أثر بيِّن في كل المؤتمرات التي ساهم فيها .. ولما أعيد تنظيم الرابطة الإسلامية عام ١٩٣٥م انتخب إقبال رئيساً لشعبتها في البنجاب [١٨] .

وقد تكون شهرة إقبال كشاعر وفيلسوف ، بحكم موهبته وعشقه للشعر وبحكم دراسته الأكاديمية وأبحاثه ، غلبت على شهرته كسياسى مناضل ، شديد المراس .. وإذا مانظرنا إلى قائمة مؤلفاته ومصنفاته سنجد بالفعل أن أغلبها دواوين الشعر ، فقد ترك نحو إحدى عشر ديواناً شعرياً كتبها بين عامى ١٩١٥ ، ١٩٣٧م باللغتين الفارسية

والأردية ، يأتى في مقدمتها : «أسرار خودى» وتعنى أسرار معرفة الذات الذي نشر عام ١٩١٥م ، «رموز بيخودي» وتعنى أسرار فناء الذات الذى نشر عام ١٩١٨م ، و «بيام مشرق» أى رسالة المشرق الذي نشر عام ١٩٢٣م ، ثم «بانك درا» وتعنى جرس القافلة أو صلصلة الجرس (١٩٢٤) ، و «جاويد نامه» ، رسالة الخلود (١٩٣٢) ، ثم «ضرب كليم» أو ضرب الكليم موسى (١٩٣٦) ، وكذلك «ارمغان حجاز» هدية الحجاز الذي نشر في أعقاب وفاته (١٩٣٨) [١٩].

أما مؤلفاته كمعلم ، والتي صنفها بين عامى ١٩٠٣ ، ١٩١٣م ، وهي باللغة الأردية فيأتى في مقدمتها كتابه في «علم الاقتصاد» الذي ضم محاضراته في الكلية الشرقية وطبع عام ١٩٠٣م ، وقد أصدر إقبال هذا الكتاب في مطلع شبابه ، ويبدو أنه لم يضف شيئاً في هذا المجال ، كما لم يحفل بإعادة طبعه طيلة حياته ، وهناك كذلك كتاب في «التربية الوطنية» الذي ترجمه عن المستر ووكر Walker ويبدو أنه كان في شكل دروس اقتصر توزيعها على الطلاب في الكلية الشرقية بالبنجاب . كما وضع إقبال كتاباً في «تاريخ الهند» بالاشتراك مع ولاله رام برشاد ، ليدرس تاريخ وأوضاع الهند للطلاب في شبه القارة الهندية وطبع عام ١٩١٣م ، كذلك وضع كتاباً في «منهج دراسة الأوردو» مع الحكيم أحمد شجاع ، لتدريسه للطلاب ، وإن كان قد جمع وطبع فيما بعد (١٩٢٤)، كما صنف إقبال منتخبات من النثر الفارسى لطلاب الثانوية تحت عنوان «آئينة عجم» أى مرآة العجم» [٢٠] .

والملاحظ أن فكر إقبال الاجتماعي والاقتصادي قد تكون منذ أوائل عام ١٩٠٣م ، أى منذ وضع كتابه في علم الاقتصاد ، وقبل اتصاله بأوربا (١٩٠٥ - ١٩٠٨م) وقبل قيام ثورة البلاشقة في روسيا عام ١٩١٧م ، وقد صرح إقبال في كتابه هذا بأنه يقف إلى جانب الفلاحين والعمال والطبقات المضطهدة ، وبرغم حماسته لتحديث الاقتصاد في هذه الفترة المبكرة من حياته ، إلا أنه لم يطور أفكاره الأساسية في هذا الشأن فيما بعد كما أشرنا [٢١].

أما مؤلفات إقبال الفلسفية فيأتى في مقدمتها كتابه «تطور الميتافزيقا في فارس» The Development of Metaphysics in Persia الذي كان رسالته للدكتوراه

من جامعة ميونخ والذي قدمه بالانجليزية ثم نشر عام ١٩٠٨م لأول مرة ، ويعالج فيه الارسطوطالية والأفلاطونية في فارس ، والعقلية الإسلامية وقضايا المثالية والواقعية ، والتصوف وغيرها . وفيه عرض وتفسير للفكر الفارسى في ضوء الفلسفة الحديثة . ثم يأتى كتابه الهام «تجديد الفكر الدينى في الإسلام» الذي سبق وأشرنا إليه ، والذي تكرر طبعه بالانجليزية خلال الفترة ١٩٣٠ - ١٩٥١م ، وهو يتناول قضايا المعرفة والتجربة الدينية ، ثم البرهان الفلسفى للتجربة الدينية ، الألوهية ومعنى الصلاة ، حرية الذات الإنسانية وخلودها ، روح الثقافة الإسلامية ، الحركة العقلية (الاجتهاد) وبناء الإسلام ، وأهمية وإمكانية التدين .. وينشد إقبال من هذا الكتاب فهم الإسلام فهماً صحيحاً بوصفه رسالة للإنسانية كافة ، بل يبرز الكتاب كإسهام في تأسيس روحية إسلامية حديثة من خلال محاولة بناء الفلسفة الإسلامية بناء جديداً ، أخذاً في الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام ، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة [٢٢].

والجدير بالإشارة أن فكر إقبال الفلسفى لم ينحصر في هذين المؤلفين الرائدين ، فالثابت أنه طرح فلسفته وفكره كذلك في دواوين شعره ، حتى لقد كان شعره «فصولاً فلسفية في صورة شعره ، أو شعر يتضمن أفكاراً متفرقة من فلسفته ، حسب تعبير عبد الوهاب عزام ، ومن ثم فإن دارس فلسفة إقبال لابد له من دراسة شعره لاستكمال فهم هذه الفلسفة في مضمونها وإطارها وتميزها .

أما عن فكره ومواقفه السياسية ، فقد ضمت مجموعات رسائله الكثير بشأنها ، وخاصة رسائله للعديد من شخصيات ورجالات عصره ، وكان إقبال يهتم بالرسائل اهتماماً شديداً ، وقد صنف وجمع الكثير منها ونشر ويأتى في مقدمتها من حيث الأهمية في هذا المجال «رسائل إقبال إلى محمد علي جناح» وكذلك «مكاتيب إقبال» «إقبال نامه» وغيرها ، وقد نشرت مجموعة من رسائله إلى جناح عام ١٩٤٢م ، أي بعد وفاته ، وتضمنت المجموعة رسائله إلى القائد خلال الفترة (مايو ١٩٣٦ - نوفمبر ١٩٣٧م) وتكمن أهميتها في توضيح الدور الهام الذي اضطلع به إقبال في تحرير بلاده ونشاطه السياسي في شبه القارة الهندية ، كذلك نشرت مجموعات من «رسائل إقبال» عام ١٩٤٤م وما بعدها .. وسوف نلاحظ أن مواقفه السياسية كانت تتسق ، بل كانت تعبيراً عن فكره وقناعاته الفلسفية كذلك ، فظل الرجل أميناً لما يعتقده ، مناضلاً قوياً ، مدافعاً عن مصالح أمته الإسلامية وعن حقها في الحياة المستقلة الكريمة ، بعقل الفيلسوف ، وروح الشاعر الثائر .

(ب) دوره السياسي والوطني

«إن أمة لا تمتلك أرضاً تستند إليها لا دين لها ولا حضارة ، فإنما الدين والحضارة بالحكومة والقوة ، وإن باكستان هي الحل الوحيد للمشاكل التي يواجهها المسلمون في هذه القارة الهندية» محمد إقبال

ذكرنا في مقدمة دراستنا أن محمد إقبال عرف بين دارسيه ومؤرخيه وبين الكتاب جميعاً بكونه شاعراً فيلسوفاً ، أو بالفيلسوف الشاعر ، وربما طغت صفته هذه على دوره السياسي والوطني ، بحكم تراثه الفكرى ، أو بإعتباره لم يبدأ حياته العملية سياسياً عملياً ، وإنما معلماً ودارساً للفلسفة ، ومن هنا كان اهتمامنا بإبراز هذا الجانب السياسي والدور الوطني في حياة ذلك الشاعر الفيلسوف .

وقد اختلف النقاد في تقييم دور إقبال السياسي، فمنهم من اتهمه بالتخاذل ، وأحياناً بمهادنة ومسالمة الانجليز ، الذين منحوه لقب «سير» ، كما وصف أحياناً بالسلبية تجاه الحركات السياسية ، التي لم يكد يشارك فيها حتى ينأى بنفسه عنها ، متخذين من تنحيه عن قيادة لجنة العلاقات العامة في الجامعة الإسلامية ، وخروجه من حركة الخلافة عام ١٩١٨م ، حجة على ضعف مواقفه السياسية ، وكذلك عدم ترشيح نفسه لدورة أخرى للمجلس النيابى المحلى بالبنجاب ، رغم انتخابه بأغلبية ساحقة عام ١٩٢٦م ونضاله فيه ، وقد وصف إقبال نتيجة لذلك بعدم الصبر وعدم التمرس الكافى بأساليب السياسة وفنونها وتقلباتها .

ومن الملفت للنظر أن إقبال ، في وقفة مراجعة وكشف للذات ، وصف حالته تلك بقوله «إن إقبال قد أحسن صنعاً في نصح الآخرين ..إنه خطيب ساحر .. أنه رجل رفيع الشأن إذا ما آن أوان الحديث ، أما عندما يحين وقت الفعل والعمل ، فإنه ليس كذلك ..» وهكذا لم يعتبر إقبال نفسه قائداً سياسياً ، بالرغم من أن حياته تمثل سعياً دائباً لمزج السياسة بالقيم الروحية ، فقد كان من ذلك الطراز من الزعماء الذين نجحوا في بعث شعوبهم سياسياً وروحياً .. [٢٣] .

وفي شهادة لصديقه «الدكتور إحسان حقى» يذكر أن إقبال «كان بفطرته بعيداً عن السياسة ، وما كان له أن يكون سياسياً ، وهو الفيلسوف الشاعر ، ولكن السياسة هي التي كانت تطلبه وتحتاج إليه ، والمفكرون من الناس كانوا بحاجة إلى الاسترشاد بآرائه في القضايا الوطنية لما كان يتمتع به إلى المكانة العلمية والاجتماعية في البلاد ، فكان مرغماً على خوض ميادين السياسة من غير أن يكون سياسياً محترفاً ، أو سياسياً طامعاً في جاه أو منصب ، بل إن وجاهته في علمه وأدبه ، كانت تفرض عليه أن يكون خادماً لبلاده، وكان يجيب نداء هذا الواجب ... فخدم إقبال بلاده عن طريق الشعر و العلم ، والمحاماة ، والسياسة ..» [٢٤] .

وقال عنه القائد الأعظم محمد علي جناح «إن إقبال كان بالنسبة لى صديقاً ومرشداً وفيلسوفاً ، وفي أحلك اللحظات التي تمر بها الجامعة الإسلامية ، وقف إقبال كالصخرة ، ولم يجفل لحظة واحدة قط ..» والواقع أن مسلمى جنوب شبه القارة الآسيوية يشعرون بالامتنان والشكر لإقبال ، لأنه أوضح لهم وسيلة التخلص من نير الاستعمار ، فقد شرح لهم أولاً ضرورة خلق دولة خاصة بالمسلمين في شبه القارة ، وقام برسم خطة العمل للقائد الأعظم محمد علي جناح لقيادة حركة التحرير التي أدت إلى تأسيس جمهورية باكستان الإسلامية عام ١٩٤٧م . ويمكن القول أنه لولا محمد إقبال ولولا محمد علي جناح لما كان اليوم على وجه الأرض ، شئ يسمى باكستان ، فإقبال كان المهندس الذي يرسم التصميم ، وجناح كان البنّاء الذي ينفذ هذا التصميم [٢٥] .



❑ نشاطه السياسي قبل عام ١٩٢٦م :

وقبل تتبع الدور السياسي والوطني لمحمد إقبال نرى لزاماً علينا أن نستخلص عدداً من الحقائق والأحداث التاريخية التي مرت بشبه القارة الهندية قبيل بداية اهتمام إقبال بالسياسة في أوائل القرن العشرين .. ويمكن في هذا الشأن التأكيد على أن شبه القارة الهندية في معظمها كانت حتى أواسط القرن التاسع عشر خاضعة للسيطرة البريطانية . وكان الانجليز قد توافدوا بكثرة على شبه القارة الهندية منذ تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية في أوائل القرن السابع عشر ، ولم يصعب عليهم الاستفادة من الصراعات

والانقسامات الدينية والعرقية التي مزقت الهند إلى دويلات متناحرة إثر سقوط مملكة المغول . وفي عام ١٧٩٩م أسقط الانجليز حكم السلطان (تيبو) المسلم وحرموا أبناءه العرش بعد أن عينوا حاكماً هندوسياً بعده ، فاختفت مظاهر السلطة الإسلامية من جنوب الهند بعد القضاء على ثورة تيبو التي يعتبرها المؤرخون أول عمل إسلامي منظم لتحرير شبه القارة من الانجليز . وفي أعقاب ذلك بدأت أوضاع المسلمين - بل والهندوس - تتدهور ، سياسياً واقتصادياً ، مما أدى في النهاية إلى ظهور انتفاضات ثورية ، شارك فيها الهندوس أيضاً كما هو معروف . ومن أشهر الانتفاضات الإسلامية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر تلك التي قادها الشيخ أحمد بن عرفان الشهيد ، والشيخ اسماعيل الشهيد ، حفيد الشاه ولي الله الدهلوى ، ولكنها فشلت ، وفي عام ١٨٤٣م استولى الانجليز على وادى السند ، ثم هزموا السيخ في البنجاب عام ١٨٤٩م وضموه إلى ممتلكاتهم ، التي بلغت حتى عام ١٨٤٨م ما يقرب من نصف مساحة الهند .

وقد توجت هذه الانتفاضات بثورة عارمة اندلعت في مايو ١٨٥٧م شارك فيها المسلمون جنباً إلى جنب ضد النفوذ والسيطرة البريطانية ، ونجحت الثورة في تحرير دلهى وكذلك شمال الهند ، عدا البنجاب ، ورغم نجاح الثورة واتفاق المسلمين والهندوس على اختيار الامبراطور المغولى (بهادر شاه) امبراطوراً لهم ، إلا أن الانجليز أخضعوا الثورة في النهاية ، وصار التاج البريطانى مهيمناً على كل الأمور . وبدأت سلطاته في تصفية عناصر الثورة واضطهاد المسلمين ، معتبرين أياهم المسئولين عن الثورة ، فصودرت ممتلكاتهم وضيق عليهم في أرزاقهم ، ولم يعامل الهندوس نفس المعاملة ، بل قربهم الانجليز إليهم ، مما أدى إلى شق الجبهة الهندية ، وإتساع الهوة بين المسلمين والهندوس وهو أمر استهدفه الانجليز أيضاً ، وكان لذلك نتيجة هامة بالنسبة للمسلمين ، الذين ازدادوا تقارباً من بعضهم البعض ، مما وضع نواة تجمعاتهم فيما بعد ..[٢٦] .

وفي المقابل أخذ الهندوس ينظمون صفوفهم على أساس عنصرى لتكوين عصبة هندوسية ، مستفيدين من معاملة الانجليز ، وقد ذكر الزعيم نهرو في سيرته الذاتية «أن أيدى الانجليز كانت أشد وطأة على المسلمين منها على الهندوس» وبدأ هؤلاء يطالبون في تجمعاتهم من المسلمين إما أن يتحولوا إلى الهندوسية أو يهجروا الهند ، وازدادت

الاضطرابات بين عنصرى الأمة على نحو أخاف الانجليز أنفسهم وهدد استقرارهم ، فاضطر وزير شئون الهند في الحكومة البريطانية ، ونائبه في الهند عام ١٨٨٢م (اللورد ريبون) إلى أن يعلنا أنه سيصدر قانون انتخاب لإقامة حكم ديمقراطى في الهند ، وعلى أثر ذلك أنشئ حزب المؤتمر الهندى Indian National Congress في بومباى في ديسمبر ١٨٨٥م تحت رعاية النائب البريطانى (اللورد دوفرين . وكان الناطقون باسم المؤتمر القومى يستنكرون فكرة أن الهند تحتوى على أمتين ، هندوسية وإسلامية ، وكان المقصود بكلمة «القومى الهندى» أنها تشمل المسلمين والهندوس ، ولكن إذا أقيم حكم ديمقراطى سيحكم الهندوس وحدهم باعتبارهم الأغلبية .. وبالفعل بدأ الحزب ينشط بجمعياته ومؤسساته لإحياء الثقافة الهندوسية ودعم الأوضاع الاقتصادية الهيدوكين .

وكرد فعل لنشاط حزب المؤتمر الهندى بدأ قادة المسلمين في تنظيم صفوفهم ، وبرز من زعمائهم السيد أحمد خان (١٨١٧ - ١٨٩٨م) داعياً لتوحيد المسلمين في شبه القارة الهندية ، فضلاً عن دعوته الشهيرة بتعليمهم وتثقيفهم ، وفي سبيل ذلك أسس جامعة عليكرة المعروفة ، ودعا إلى تعديل موقفهم تجاه الانجليز ، وحثهم على ضرورة تعلم الانجليزية والاستفادة من العلوم والمعارف الحديثة ، للتعامل مع الانجليز ثم مقاومتهم ، وقام بجولاته في أنحاء الهند داعياً لاتجاهاته ومهاجماً سياسة المؤتمر القومى الهندى ، كما فضح سياسة الانجليز ضد المسلمين مما أدى إلى تخفيف حدة الاضطهاد الانجليزى نسبياً .. ونجح السيد أحمد خان في الإصرار على أن المسلمين يجب أن يكون لهم نظام ترشيح قائم بذاته في هيئات الحكومات المحلية التي يؤسسها اللورد ريبون .

ودعا السيد أحمد خان المسلمين إلى مؤتمر عام يعقد دورياً ، في مواجهة حزب المؤتمر القومى الذي لم يستطع أن ينجز شيئاً حتى تولى اللورد مورلى وزيراً لشئون الهند عام ١٩٠٦م ، حيث دعا إلى إقامة لون من ألوان الحكم في الهند ، يمثل فيه المواطنون جميعاً، وعند ذاك قابله وفد من زعماء المسلمين ، يتقدمهم أغا خان وقدموا له نفس المطالب التي سبق وقدمها أحمد خان للورد ريبون ، مطالبين بضمانات خاصة لمجتمع المسلمين ، وبمنحهم تمثيلاً في المجالس التشريعية يفوق قوتهم العددية لحمايتهم من أن يغدوا أقلية لا أثر لها . ولكى يعترف بأهميتهم السياسية ومساهمتهم في الدفاع الامبراطورى ، وسيادتهم

السابقة على الهند ، وأبدى اللورد اعترافه وتفهمه لذلك وقبل مبدأ التمثيل الطائفى، كما اعترف بحقوق المسلمين في الهند (٢٧) .

وفي عام ١٩٠٧م مهد الطريق لينظم المسلمون أنفسهم تنظيماً سياسياً ، وكان القادة قد بدأوا بالفعل منذ أواخر العام السابق في عقد «الاجتماع التعليمى السنوى لعموم مسلمى الهند» في دكا برئاسة نواب وقار الملك ، وفي هذا الاجتماع الهام صدر قرار بإنشاء «رابطة مسلمى الهند» All India Muslim League وهي تلك الرابطة أو العصبة التي لعبت دوراً هاماً في بلورة كيان إسلامى خاص في شبه القارة ، توج في النهاية بتأسيس دولة باكستان .



كان إقبال يدرس في لندن خلال هذه التطورات المتلاحقة ، عند تأسيس العصبة الإسلامية ، وكما هو معروف أن العصبة أسست لها فرعاً في لندن برئاسة السيد أمير علي ، فاختير إقبال عضواً بمجلس هذا الفرع ، فكان ذلك أول نشاط سياسى له ، وتركزت مهمة هذا الفرع في تبصير الحكومة والشعب الانجليزي بأوضاع شبه القارة الهندية وأوضاع المسلمين ووجهة نظرهم في شأن السياسة البريطانية هناك .

وعندما عاد إقبال إلى وطنه عام ١٩٠٨م كانت العصبة الإسلامية قد أنشأت لها فروعاً في شتى أنحاء الهند ، فانخرط إقبال في العصبة الاقليمية بالبنجاب ، وبدأ يهتم بالسياسة اهتماماً مباشراً ويكون لنفسه آراء واتجاهات في المسائل التي تواجه المسلمين منذ هذا الوقت المبكر ، خاصة وأنه لم يلبث أن تحرر من العمل الحكومى وبدأ يشتغل بالمحاماة، ويمكن القول بأن منهجه السياسى ، التزم بتحرير شبه القارة الهندية من السيطرة البريطانية دون الانتقاص من حقوق المسلمين بشكل من الأشكال (٢٨) .

وعندما صدرت إصلاحات (مورلى - منتو) لعام ١٩٠٩م أقرت بحق المسلمين في دوائر إنتخابية خاصة بهم ، ثم تأكد هذا الوضع بإصدار ميثاق لكهنؤ لعام ١٩١٦م ، ذلك الميثاق الذي صدر في منزل والد الزعيم نهرو ، وتقرر فيه حق المسلمين في التصويت في الدوائر العامة ، وفي دوائر خاصة بهم .. وتعاون المسلمون مع الهندوس في حث الحكومة

البريطانية على منح الهند الحكم الذاتى ، فاضطر وزير الدولة البريطانى إلى إصدار إعلان في أغسطس عام ١٩١٧م «بتقرير إصلاحات دستورية في الهند» .. واستمر تعاون الهندوس مع المسلمين خلال الأعوام التالية ، خاصة في مقاطعة الانجليز .

وعندما هزمت الدولة العثمانية خلال الحرب الأولى وبدا واضحاً إنهيار الخلافة الإسلامية شكل المسلمون في شبه القارة الهندية لجانا لدعم الخلافة ، واختير إقبال عام ١٩٢٠م عضواً بلجنة الخلافة عن البنجاب ، ولكنه لم يلبث أن استقال منها معترضاً على أساليب قادة اللجنة ، واعتبر نشاط اللجنة ذاته خطراً على المسلمين ، رغم حماسته لفكرة الخلافة ، وتمجيدها في أشعاره ، إلا أنه قصر نشاطه خلال هذه الفترة على إعداد الرأى العام وخلق الوعى السياسى لدى مواطنيه والدعوة لبعث الأمة الإسلامية ، بكتاباته وأشعاره دون مشاركة عملية فعالة في الاجتماعات السياسية [٢٩] .

وإتساقاً مع طبيعته الخاصة في هذه الفترة من العشرينيات اشترك إقبال في جمعية «حماية الإسلام» في لاهور (أنجمن حماية الإسلام) وكان سكرتيراً لها خلال الفترة (١٩٢٠ - ١٩٢٩م) ثم رئيساً لها (١٩٣٤ - ١٩٣٧م) وكان نشاط الجمعية يتركز أساساً في خلق الوعى لدى المسلمين في البنجاب عن طريق العمل التعليمى والثقافى والاجتماعى ، وقد لعبت الجمعية دوراً هاماً في ابراز الكيان الخاص لمسلمى البنجاب ، وكان ذلك مما يتفق ودور إقبال الذي كان يجد نفسه من خلال هذا النشاط ، أكثر من الاشتغال بالنشاطات السياسية المباشرة ، على الأقل قبيل عضويته للمجلس التشريعى بلاهور عام ١٩٢٦م ..

والثابت أن بعض أصدقائه حاولوا ترشيحه للمجلس منذ بداية عام ١٩٢٣م ، لكنه وجد مبرراً للاعتذار في عدم رغبته في منافسة صديقه (ميان عبد العزيز) عمدة لاهور ، وظل إقبال متنكباً عن التورط في السياسة . لكن تدفق الأحداث وإحاطتها به وبوطنه ، دفع به دفعاً إلى تغيير موقفه ، فشهد عام ١٩٢٣م إنتهاء الوفاق بين الهندوس والمسلمين ونشطت حركتى (شدهى) و (سنكتهان) الهندوسيتان ، لدعوة المسلمين إلى الهندوسية ، وتأسيس جيش خاص بالهندوس ، فضلاً عن دور الانجليز في التفرقة بين العنصرين ، ومعاودة تقريبهم الهندوس ، وانحيازهم ضد المسلمين ، وتطورت الأمور إلى صراع علنى

بين الفريقين ، وتوالت الاضطرابات الطائفية منذ عام ١٩٢٤م واندفعت البلاد إلى حالة من الحرب الأهلية .. ولم يكن بوسع إقبال أن يتردد وهو يراقب هذه التطورات مع فشل محاولات التوفيق والمصالحة .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك التفاعل السياسى الذي حدث بينه وبين محمد علي جناح، فرغم أن إقبال كان يطالب بضرورة تكوين شخصية سياسية منفصلة للمسلمين في الهند ، بشكل سلمى وبالتعاون مع الهندوس ، إلا أن تأثره بنشاط جناح ، الذي تحول من مؤمن بتعاون المسلمين والهندوس ، إلى بطل راسخ في استقلال مسلمى الهند ، هذا التأثر والتفاعل مع جناح كان عاملاً آخر في إتجاه إقبال نحو العمل السياسى المباشر [٣٠] .



إقبال مناضلاً برلمانياً :

ويشكل عام ١٩٢٦م عاماً فاصلاً في إتجاه إقبال الجديد ، نحو العمل السياسى والوطنى ، وهو العام الذي شهد ترشيحه بضغط كبير من أبناء البلاد ثم فوزه بعضوية المجلس التشريعى (النيابى) الاقليمى في البنجاب ، ففاز في دائرة لاهور المسلمة بمقعد ، ومن بين ١٢ ألف ناخب سجلوا ، أدلى ٦٨٪ بأصواتهم ، حاز إقبال ٥٦٧٥ صوتاً ، وحصل منافسه مالك محمد الدين على ٢٤٩٨ صوتاً ، وحققت لإقبال شعبيته هذا النجاح الساحق [٣١] .

والواقع أن نضال إقبال خلال عضويته بهذا المجلس كشف على أنه سياسى بارع ومناضل عنيد ، فقد تصدى لكل المشروعات بالمناقشة ، وشارك في استصدار كافة التشريعات المتعلقة بالنواحى الصحية والتعليمية والضرائبية ، وميزانية الاقليم ، والقوانين المتعلقة باحترام القادة الدينيين ، وغيرها من القوانين التي صدرت عام ١٩٢٧م ولايزال معمولاً بها. فطالب بتعميم التعليم العام وجعله إلزامياً وفورياً (في مارس ١٩٢٧م) وهاجم السياسة البريطانية التي لا تهتم بإصلاح التعليم في بلاده ، وحرصها على جهل الأهالى ، وعند مناقشة ميزانية ٢٧ - ١٩٢٨م طالب بمزيد من الانفاق على النواحى الصحية في القرى ، وتقديم الرعاية الصحية للنساء ، وقدم مشروعاً بقانون لحظر الخمور ، لكنه لم ير النور ، رغم قوة منطقه وحججه [٣٢] .

وكانت معركة إقبال الكبرى داخل دورات المجلس مع كبار الملاك ، لضمان عدالة توزيع الأرض الزراعية ، فطالب الحكومة بتخصيص نصف الأراضى التي تعرضها للبيع لكبار الملاك ، لتوزيعها على الفلاحين العاملين الحقيقيين في الأرض ، وهاجم فكرة تحصيل ضريبة الأرض من الملاك أيا كان حجم ملكياتهم ، بينما إذا حصل الإنسان رزقه من عمل آخر غير الأرض ، بما يقل عن ألف روبية في السنة ، لا يحصل منه ضرائب ، ورأى ذلك ظلماً بيناً لصغار الملاك ، ورغم أن اقتراحاته لم تصدر ، إلا أن كلماته ظلت صارخة قوية وهو يشرح الفرق بين ضريبة الدخل وضريبة الأرض . والملاحظ أن إقبال كان مدافعاً قوياً عن مصالح العصبة الإسلامية وجماهير المسلمين ومعارضاً لمصالح كبار الملاك، وكان موقفه هذا يغضب حلفاءه من أعضاء الحزب الاتحادى (الوحدوى) الذي يترأسه (فضلى حسين) ، ممن مالوا لحماية مصالح كبار الملاك المسلمين ، وكان يهاجم السياسة المالية التي رأى أنها وضعت لخدمة مصالح الاقطاع ، وكان ذلك ضد مصالح كبار الملاك في البنجاب ، الذين كانوا يؤيدون السياسة الاستعمارية الانجليزية في الهند .

و كانت الحكومة البريطانية تعتبر التاج البريطانى مالكاً لكل الأراضى الزراعية ، ومن ثم فرضت نظاماً ضريبياً مجحفاً ، فعارض إقبال هذا القانون بشدة ، واعتبر النظرية البريطانية بشأن ملكية التاج نظرية بربرية وذكر «إن شعب البنجاب قد تملك واحتفظ بأراضى اقليمه منذ زمن سحيق ، وأن التيجان تأتى وتذهب ، والشعب هو الباقى أبداً . . »[٣٣] . وطالب إقبال نيابة عن صغار الملاك(الذين يمتلكون أرضاً لا تزيد عن خمس أوكرات) بضرورة اعفائهم من ضريبة الدخل ، مما أغضب وزير المالية ، الذي اعتبر أن ذلك سيكلف ميزانية الدولة ، فرد إقبال بأن الحكومة ستخسر شيئاً من ايرادتها ، لكنها ستوجد شيئاً من الإحساس بالعدالة .. وكان الأخذ باقتراحات إقبال وأرائه سيؤدى بطبيعة الحال إلى تحويل مجتمع اقطاعى ، إلى مجتمع أكثر عدالة ومساواة [٣٤] .

ومن المسائل التي أثارها إقبال داخل المجلس التشريعى ، قضية تفشى البيروقراطية وإزدياد مصالحها ، ورأى أن حكومة بلاده تنفق على الإدارة أكثر من أى بلد في العالم ، ولا تنفق عملياً أى شئ على الصناعات ، وأضاف أن المخرج الوحيد من مشكلة البطالة هو التطور الصناعى . وخاصة في مجال صناعات النسيج والجلود .. وأوضح أن بيروقراطية

الدولة مؤلفة في الغالب من الانجليز وأعوانهم ، حيث تتقاضى مرتبات وامتيازات ضخمة ، تؤثر على الميزانية ، وقدم اقتراحاً باستقطاع مبالغ من هذه الرواتب والامتيازات ، لكنه وجد معارضة قوية من قبل الموظفين الانجليز ، ومن ثم رفض .. وبشكل عام هاجم إقبال بعنف المصلحة المترابطة للطبقات الثلاث : الرأسمالية والاقطاعية والبيروقراطية ، ولأن ممثلى هذه الطبقات هم الذين يسيطرون على المجلس ، لم تقبل مقترحاته .

ومن أهم القضايا التي آثارها كذلك ، عند مناقشة ميزانية الحكومة لعام ٢٩ - ١٩٣٠م ، سياسة الحكومة في التضييق على مدارس المسلمين ، وسياسات الحكومة الانجليزية في منح المساعدات المالية السخية لمدارس الهندوس ، بينما لم تحظ مدارس المسلمين الفقيرة سوى بمساعدة اسمية من الحكومة ، وقدم إحصائيات تفضح سياسة التفرقة وعدم المساواة في المعاملة بين المدارس الإسلامية وغير الإسلامية [٣٥] .

لقد كان إقبال فارساً برلمانياً قوياً ومدافعاً عن مصالح الفقراء ، اكتسب شعبية قوية كسياسى عنيد ، إلى جانب شهرته كشاعر ثائر ، غير أن القوى المعارضة من أصحاب المصالح ، ومن بينها حلفاؤه من الاتحاديين ، قد أجهضت مقترحاته ، وما إن انتهت الدورة التشريعية ، حتى أحس إقبال أن مشاركته لم تثمر النتائج التي أرادها ، وأن المجلس تدور فيه مناقشات ومناورات كثيرة لا خير فيها ولا طائل من ورائها ، ولذلك قرر أن لا يرشح نفسه مرة أخرى لعضويتها .



في سبيل باكستان :

أما عن جهوده في تأسيس ونشأة دولة المسلمين في شبه القارة الهندية ، والتي عرفت فيما بعد بباكستان ، فتبدأ هذه الجهود في الواقع ، وعلى نحو ما أشرنا ، منذ أن بدأ يطالب بأن تكون للمسلمين شخصية سياسية منفصلة في الهند ، ثم كان التفاعل السياسى بينه وبين جناح منذ أواخر العشرينيات ، وتعاونهما معاً في وضع بذور الدولة الإسلامية ، بعد فشل تعاون المسلمين والهندوس .. وحتى ظهور دولة باكستان الإسلامية المستقلة بعد وفاة إقبال بسنوات ، بعد أن وضعت أسسها .

وعندما عقد مؤتمر الوحدة في دلهى في مارس ١٩٢٧م ، بين العصبة (الجامعة) الإسلامية بقيادة جناح وبين حزب المؤتمر يترأسه السير نيڤا سالنيكار ، توصل المؤتمر بين الفريقين إلى إتفاق اشتهر باسم «مقترحات دلهى» التي اعتبرت بالقياس إلى الماضى القريب ، إنجازامهما ، حيث احتوت المقترحات على نواة فكرة باكستان .. ثم التمس جناح من حزب المؤتمر أن يتبنى اتجاه العصبة الإسلامية لتحقيق غايتين كانتا تلحان عليه وهما : سلامة حقوق المسلمين ، وعمل جبهة مشتركة مع حزب المؤتمر لإخراج الانجليز، ولكن المؤتمر رفض تبنى ذلك ، مما هز ثقة جناح به إلى الأبد .

وقد عقدت العصبة الإسلامية بقيادة ميان شافى اجتماعاً في لاهور في مايو ١٩٢٨م وحررت مذكرة لتقديمها للجنة سيمون البريطانية ، التي جاءت لوضع توصيات بشأن الإصلاحات الدستورية في شبه القارة الهندية (اكتوبر ١٩٢٨م - إبريل ١٩٢٩م) وكان إقبال آنئذ سكرتيراً للعصبة ، فضمن مذكرة المطالبة بضرورة تحقيق الاستقلال الذاتى، ورغم صلابة إقبال ، في مقابل تردد رئيس العصبة ، فقد بدا واضحاً أن ثمة خلافات بين القيادات الإسلامية جميعاً ، وأنه بات من الضرورى على هذه القيادات أن تتحد جميعاً وأن تقف بصلابة لمقاومة مكائد حزب المؤتمر الهندى وكذلك الحكومة البريطانية .. وكانت فكرة إنشاء اتحاد لعموم الأحزاب والتكتلات الإسلامية قد فرضت نفسها على هذه القيادات ومن بينها إقبال .

ولم تلبث أن اجتمعت عصبة جناح مع عصبة شافى ، مع بقية التكتلات الإسلامية فيما عرف «بمؤتمر عموم مسلمى الهند» في الفترة من ديسمبر ١٩٢٨م حتى يناير ١٩٢٩م، وانتخب سلطان محمد أغا خان رئيساً للمؤتمر ، وكان على رأس مطالبه أن يكون دستور المستقبل فيدرالياً وأن يتضمن أعلى مراتب الاستقلال الذاتى ، وأن توزع السلطات في الأقاليم ، وأن يكون للمسلمين نصيبهم في الوزارة المركزية والمحلية [٣٦] .

وبدأ نشاط المؤتمر الإسلامى يبرز كتنظيم مستقل تحت عنوان «جامعة عموم مسلمى الهند» All India Muslim League ، وفي ديسمبر عام ١٩٣٠م ترأس إقبال اجتماع الدورة السنوية للجامعة في الله آباد ، ذلك الاجتماع الذي أسفر عن إنتخابه رئيساً للجامعة الإسلامية ، حيث ألقى خطاباً غاية في الأهمية ، ناقش فيه المسألة الطائفية في

البلاد ، وأوضح عجزها عن تذويب كياناتها في كيان جمعى واحد ، وخلص إلى أنه لا مجال لتحقيق الوحدة بين فئتى شبه القارة من المسلمين والهندوس ، ومن ثم ينبغى الاعتراف بالاختلاف القائم بين الفئتين والعمل على إيجاد لون من ألوان التعاون بينهما .. وذكر إقبال أن وحدة الأمة الهندية يجب أن تنشد ، ليس بالنفي ، وإنما بالتوافق المتبادل والتعاون بين العنصرين .. ثم أوضح مطالب أمته على النحو التالي :

إن مسلمى الهند لايمكنهم أن يوافقوا على أية تغييرات دستورية تؤثر على حقوقهم، فهم كأغلبية في البنجاب والبنغال يجب أن تكفل لهم دوائر إنتخابية مستقلة ، وينبغى ألا يقبلوا ما دون ٣٣٪ من مقاعد أى مجلس تشريعى مركزى .. وتساءل : لماذا لم تكن لدى حكومة الهند ، وقد اعترفت بالأجحاف الشديد بحق المسلمين ، الشجاعة لأن توصى بأغلبية دستورية للمسلمين في البنجاب والبنغال ؟ .. لايمكن لمسلمى الهند أن يوافقوا على أية تغييرات لاتكفل إقامة إقليم منفصل على الأقل في السند .. لا أرى سبباً في أن لا توحد السند مع بلوچستان ليتألف منهما إقليم واحد مستقل .. أود أن أرى البنجاب وإقليم الحدود في الشمال الغربي والسند وبلوچستان ، مندمجين في دولة واحدة مستقلة ذاتياً ، سواء في إطار الامبراطورية البريطانية أو خارجها .. يظهر لى أن تكوين دولة مسلمة في شمال غرب الهند هو القدر الأخير للمسلمين ، أو على الأقل لمسلمى شمال غرب الهند ..

لقد أشار إقبال إلى أن المسلمين هم الشعب الهندي الوحيد الذي يمكن وصفه كأمة ، إذ أن الهندوس لم يتمكنوا حتى الآن من تحقيق تجانس مماثل بينهم ، وأهم من ذلك أن خطاب إقبال هذا قد أنكر فيه أن تكون الديمقراطية بطرازها البريطانى ذات فائدة لأمم أخرى كثيرة ، لذلك اقترح أن يحافظ على الوحدة الهندية بتسليم صريح بالتنوع القومي، في نظام فيدرالى من شأنه أن يعطى الحكومة المركزية سلطات محدودة جداً ، كما يعطى الوحدات المنتخبة أقصى مايمكن من الحرية ، وأن دولة المسلمين في تلك الزاوية من الهند ستكون عضواً من أعضاء ذلك الاتحاد الفيدرالى الهندى الفضفاض [٣٧] .

لقد قدر لكلمات إقبال هذه أن تغير بشكل قاطع مصير المسلمين في الهند ، فكان بذلك أول من طالب في مؤتمر إسلامى كبير ، وعلى مرأى من كافة القيادات ، بضرورة قيام

دولة إسلامية في الهند ، لقد أوضح بمنطق غاية في البساطة والدقة فكرة قيام هذه الدولة وضرورتها ، فبعد أن عرف معنى مصطلح «القوم» وأشار إلى حدود الوطن الجغرافية ، أكد أن طلب المسلمين تكوين هند إسلامية ، داخل شبه القارة ، هو مطلب عادل تماماً ، ثم أشار إلى طبيعة النظام الفيدرالى للهند ، بعد قيام هذه الدولة ، حيث سيتألف من أقاليم متمتعة بالحكم الذاتى ، وقائمة على وحدة اللغة والدين والاقتصاد المشترك [٣٨] ..

كان على مسلمى الهند أن يناضلوا لتحقيق هذه الدولة ، وهو ما حدث بالفعل ، فقد وضعت جامعة عموم مسلمى الهند فكرة تحقيق الدولة على رأس مطالبها عام ١٩٤٠م ، فدعت لإقامة دولة باكستان التي لم يكن اسمها قد وضع بعد ، وهو الأمر الذي تحقق ، بعد صراع طويل ، في عام ١٩٤٧م .. صحيح أن الفكرة لم تتحقق في حينها بسبب عوامل أعاقت من تنفيذها . وأخطار أحدقت بها ، لكنها في النهاية أثبتت واقعيتها وتحققت عملياً .

وهكذا رأى إقبال ببصيرته وهو المفكر الفيلسوف أن نظاماً إسلامياً حقيقياً لايمكن أن يزدهر إلا في ظل حكومة إسلامية مستقلة ، فالأفكار السياسية والاجتماعية التي ظهرت في محاضراته حول «تجديد الفكر الدينى في الإسلام» قادته إلى التوصل إلى أن المثل العليا الإسلامية في المساواة الاجتماعية والعدالة الاقتصادية ، والتحرر من جميع أشكال الاستغلال ، لايمكن أن تتحقق إلا في ظل دولة إسلامية مستقلة ، لذلك مهدت هذه الأفكار الأذهان لفكرة وجود وطن مستقل للمسلمين في الهند ، وكانت هذه الأفكار الأكثر بروزاً في خطاباته ورسائله السياسية منذ عام ١٩٣٠م .

لقد استطاع إقبال ، في رسالة له إلى نهرو ، أن يوضح الاختلاف بين القومية التي يريدها الهنود وبين الإسلام ، فذكر بأن القومية كانت مشكلة المسلمين ، عندما يكونون أقليات في بلد كالهند ، لكنها في الأقطار التي تكون لهم فيها الأغلبية تتطابق عملياً مع القومية ، واستطاع إقبال ببراعة أسلوبه أن يرد على دعوى حزب المؤتمر القومي الهندي بقيام قومية علمانية واحدة ، فغير بذلك مسار التاريخ في الهند، وكان ذلك قمة نجاحه السياسى ، وقد صرح محمد علي جناح في خطابه الذي وجهه إلى جامعة عموم مسلمى الهند في مؤتمرها في مارس عام ١٩٤٠م ، بنظرية إقبال في القوميتين ، التي كان يرفضها حزب المؤتمر ، حتى وقت التقسيم عام ١٩٤٧م [٣٩] .

وكانت المسألة الهندية قد انتقلت إلى لندن لبحثها في مؤتمر للمائدة المستديرة منذ أواخر عام ١٩٣٠م ، الذي مثلت فيه جميع الأحزاب الهندية في دورته الأولى - عدا حزب المؤتمر - ، وحضره عن قيادات المسلمين سلطان أغا خان وميان شافى ومحمد علي جناح ، ولم يحضر إقبال سوى في الدورة الثانية (سبتمبر - ديسمبر ١٩٣١م) وهي الدورة التي حضرها غاندى ممثلاً لحزب المؤتمر ، وقد عمل إقبال عضواً في لجنة الأقليات ، والمعروف أنه حرر بياناً رد فيه على إتهام نهرو للأعضاء المسلمين بالرجعية السياسية ، وبأنهم ضد «قومية الوطن» وبأنهم يخشون الديمقراطية ، فذكر أنه يعارض الانصهار في قومية الهندوس وهذا ليس ضد القومية ، وأن ديمقراطية الاقتراع دون ضمانات لثمانين مليون مسلم يعيشون في جماعات فقيرة متأخرة هو أمر ضد الديمقراطية الحقيقية ، وتساءل : كيف يمكن أن تحل مشكلة الهند إذا كانت طائفة الأغلبية لا تسلم بأقل الضمانات الضرورية لحماية أقلية من ثمانين مليون مسلم ، بل تتحدث عن نوع من القومية لايخدم إلا مصالحها ؟ .. والواقع أن تصلب غاندى كان يمثل تحدياً رئيسياً في إغلاق الطريق للوصول إلى إتفاق .

والذي حدث أن الكتلة الإسلامية في مؤتمر المائدة المستديرة وافقت على قبول الحكم الذاتى ، وليس من الصعب أن نعلم لماذا كان إقبال يؤكد على هذا الحل ، ذلك أن الاستقلال الذاتى الاقليمى للمناطق التي بها أغلبية مسلمة في الشمال الغربي من الهند ، سيكون كتلة تكبح جماح الأغلبية الهندوسية في أقاليم الاتحاد ، كما أنه سيكون ممهداً لإندماجها دولة إسلامية ذات سيادة .. وفي النهاية تغلبت وجهة نظر إقبال بين الوفد الإسلامي [٤٠] .

وعندما عاد القادة المسلمون إلى لاهور وعقدوا مؤتمراً لقادة عموم مسلمى الهند في مارس ١٩٣٢م انتخب الأعضاء إقبال رئيساً للمؤتمر ، وفي خطاب الافتتاح قدم إقبال اقتراحات عملية وغاية في الأهمية ، فدعا المسلمين إلى القوة والتمسك بحقوقهم لكسب مكانة للمسلمين في الدستور القادم ، واقترح تكوين منظمة سياسية إسلامية واحدة ، لها فروع إقليمية ومحلية في أنحاء البلاد ، وأن تكون ذات فكر سياسى منفتح ، يقود الجماعة وينظمها ويوحد قواها المبعثرة ، ولأجل إنشاء هذه المنظمة أو الحزب طالب إقبال

الحاضرين فتح اكتتاب مالى ، وقدم تصوراً لتنظيمات شبابية وفرق متطوعين مجهزة تجهيزاً حديثاً تابعة للحزب ومنتشرة في أنحاء البلاد وتحت قيادة مركزية ، وأن يكون لها عناية بالخدمات الثقافية والاجتماعية والإصلاح الاقتصادي ، ورفع مستوى الفلاحين بشكل خاص ، لأنهم واقعين تحت ديون المرابين الهندوس .. كما طالب بتأسيس معاهد لتثقيف الرجال والنساء في كافة المدن الكبرى على أن يكون لها اهتمام بالسياسة وبالمراكز الدينية الإسلامية القديمة والحديثة ليكون هدف التربية واحداً .. واقترح إقبال كذلك تأسيس جمعية للعلماء ، تضم محامين مسلمين ، ممن تلقوا تعليماً قانونياً حديثاً ، هدفها حماية وشرح القوانين الإسلامية في ضوء الظروف الحديثة [٤١] .. الخ ، والواقع أن إقبال لم يكتف خلال هذا الاجتماع الخطير بالمطالبة بتوحيد صفوف القادة المسلمين وتجمعاتهم في شبه القارة في حزب جماهيرى واحد فقط ، وإنما رسم مبادئ وبرامج هذا الحزب بشكل كبير .. وكان يلح على ضرورة الإعتناء بجماهير الشارع والاستفادة بها .

وعندما عقد المؤتمر دورته الثالثة في لندن (نوفمبر - ديسمبر ١٩٣٢م) نجح إقبال في بلورة مطالب المسلمين، أمام الدبلوماسيين الأجانب ، وأعضاء مجلس العموم واللوردات الانجليز ، وكرر إقتراحه بإقامة دولة إسلامية في الهند ، تضم شعبها المسلم (٥٧٪ من المسلمين في البنغال ، ٧٣٪ في السند ، ٩٥٪ من سكان مديريات الحدود الشمالية والغربية من المسلمين) الذي يبلغ نحو ثمانين مليون نسمة لهم تقاليدهم وتاريخهم الخاص ، الذي ليس لأى مجتمع آخر في الهند ، لذلك فإنهم يريدون أن يعيشوا حياتهم الخاصة .. وأضاف إقبال في المؤتمر بأنه من أربع سنوات اقترح ، بوصفه رئيساً لجامعة مسلمى الهند ، كحل ممكن ، إقامة دولة مسلمة هندية كبيرة في الغرب ، وأنه لايزال يرى أن هذا الرأى هو الحل الوحيد الممكن .. ومع ذلك لم تسفر دورة المؤتمر الجديدة عن نتائج سياسية أفضل من الدورتين السابقتين ، واستمرت السياسة البريطانية على أسلوبها في التهدئة والتأجيل [٤٢] ..

وكان واضحاً أن مجتمع الهندوس الذي يستند قادته إلى حقوق الأغلبية ، ويعتمد على مؤهلاتها من تعليم أفضل وثروة أعظم ، أما مجتمع المسلمين فإنه ، لهذه الأسباب ، مصمم على الحصول على حماية فعالة لأبنائه ، كما أنه لا ينسى أنه يمثل فاتحى البلاد وحكامها السابقين ، وقد تميزت السنوات التالية ، على نحو ماهو معروف ، بالغليان

السياسى ، واللجان والتقارير والمؤتمرات ، وتبنت جامعة عموم مسلمى الهند منهج إقبال في الاتصال بالجماهير وبات واضحاً أنها أصبحت بحق (حزب الشعب) بعد حالة من الفوضى والاضطراب بين فصائلها المختلفة ، وظهرت الجامعة في شكل حزب سياسى حقيقى منذ عام ١٩٣٦م .

وعندما صدرت التشريعات المتعلقة بالاعداد وللانتخابات ، انشغلت الأحزاب السياسية ، للإعداد لها ، وفوّض محمد علي جناح من جانب جامعة عموم مسلمى الهند ، المنعقدة في بومباى عام ١٩٣٦م ، في تكوين هيئة للمجلس النيابى المركزى ، عهد إلى محمد إقبال ورفاقه في البنجاب التعاون معه لتشكيل المجلس النيابى المحلى في البنجاب، فقام إقبال بالمهمة في وقت كانت فيه جامعة المسلمين تمر بحالة عصيبة نتيجة رفض بعض القيادات الإسلامية التعاون مع الجامعة ، خاصة جماعة فضلى حسين الوحدوى ، ودعا إقبال لاجتماع عام لجمع الصفوف مرة أخرى ، وعندما تقرر إنعقاده بالفعل في عام ١٩٣٧م ، لم يكن بوسع إقبال حضوره ، لاشتداد الأمراض عليه ، وبدا واضحاً أن جماعة اسكندر حيات (خليفة فضلى حسين) تريد السيطرة على الجامعة الإسلامية وعلى الهيئة الاقليمية للبنجاب ، مما جعل أعضاءها يفكرون في ترك العمل السياسى كلية ، يأساً من التئام الصفوف ، لكن إقبال حذرهم من هذا وهو على فراش مرضه وطلب إليهم أن يذهبوا إلى كلكتا لعرض القضية أمام مجلس الجامعة الإسلامية هناك ، وبالفعل ودعهم مطالباً إياهم بالنضال من أجل حقوقهم حتى النهاية ، وكان ذلك آخر ما قاله وهو يحتضر [٤٣] .

رحل إقبال في ابريل عام ١٩٣٨م ولم يكن قد بقى على استقلال أمته سوى خطوات قليلة ، توفى وجميع المسلمين في شبه القارة الهندية يرددون «سوف نفوز بالباكستان بأى ثمن» لقد استلهم الجميع شعر إقبال وأعماله ومواقفه ، التي حثت مسلمى الهند على الفوز بوطنهم ، وبقيام باكستان في ١٤ أغسطس عام ١٩٤٧م ، تمت مهمة إقبال ، التي نذر حياته لها .. لقد كان إقبال هو المهندس المعمارى لبناء وطن إسلامى في الهند ، وكان محارباً نشيطاً في الكفاح من أجل حرية شعب الهند ، حيث قدم رسالة حب وإخلاص إلى الهندوس وإلى الجماعات غير المسلمة ، وكان يعتقد بإخلاص أن سرعة تحرر الهند من نير الامبريالية البريطانية ، يعتمد على التفاهم الودى بين الهندوس والمسلمين ، مع اعتراف الهندوس بحق المسلمين في المساواة والانفصال بدولتهم وهو ما تحقق بالفعل .



الهوامش والمصادر والمراجع

(١) Hafez Malik, (ed). IQBAL, Poet - Philospher of Pakistan, Colombiallniv., 1971.
"Hafez and Linda Malik, The Life of the Poet - Philosopher, pp. 3 - 4".

(٢) أحمد معوض : العلامة محمد إقبال ، حياته وآثاره ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م ، ص ١٤ - ١٥ .

(٣) Hafez and Linda Malik, op. cit. p.5.

(٤) أحمد معوض ، المرجع السابق ، ص ٩ - ١٤ . وكذلك عبد الوهاب عزام ، محمد إقبال ، سيرته وفلسفته وشعره ، مطبوعات باكستان ١٩٥٤م ، ص ١٦ .

(٥) Hafez and Linda Malik, op. cit. p.5 - 6 .

(٦) خليل الرحمن عبد الرحمن ، محمد إقبال وموقفه من الحضارة الغربية ، دار حراء للنشر والتوزيع ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م ، ص ٣٢ - ٤٣ .

(٧) عبد الوهاب عزام ، محمد إقبال ، ص ١٥ - ٢١ .

(٨) Hafez and Linda Malik, op. cit. p.11 - 12 .

(٩) Ibid, pp. 12 - 13 .

(١٠) Ibid, pp. 14 - 15 .
وراجع كذلك عبد الوهاب عزام ، المرجع السابق ، ص ١٥ - ٢١ ، وكذلك بيام مشرق لمحمد إقبال ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، كراتشي ١٩٥١م ، ص ١٧ .

(١١) Riaz Hussain, IQBAL, Poet and his Politics, New Delhi, 1977. pp. v-vi .

(١٢) Arberry, A.J., The Tulip of Sinai, London 1947, p.v.

(١٣) حول هذه الأفكار راجع أبو الحسن الندوي ، روائع إقبال ، الطبعة الثانية ، دار الفتح ، بيروت ١٩٦٨م ، ص ٢١ - ١٦ ، علي حسون ، فلسفة إقبال ، دار الغزال ، دمشق عام ١٩٨٥م ، ص ٩ - ١٤ ، عزام ، المرجع السابق ، ص ١٥ - ٢١ ، وكذلك بيام مشرق لمحمد إقبال ، ترجمة عبد الوهاب عزام ، كراتشي ١٩٥١م ، ص ١٧ .

(١٤) Riaz Hussain, op. cit. p. 26.

(١٥) Arberry, A.J., The Tulip of Sinai, London 1947, pp. v-vi .

(١٦) Arberry, A.J., op. cit. p. v11.
وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية الاستاذ عباس محمود ، وراجعه عبد العزيز المراغى ومهدى علام ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٥٥م ثم صدرت له طبعة ثانية عام ١٩٦٨م .

(١٧) عبد الوهاب عزام ، المصدر السابق ، ص ٣٩ - ٤٢ ، علي حسون ، المرجع السابق ، ص ١٤ ، نجيب كيلانى ، إقبال الشاعر الثائر ، بيروت ١٩٨٨م ، ص ٤١ ومابعدها .

(١٨) راجع نفس المصادر والمراجع السابقة وكذلك أحمد معوض ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ ومابعدها ، وخليل عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٥٧ ومابعدها .

(١٩) راجع قائمة مؤلفاته الشعرية وتواريخ نشرها في كتاب إقبال «بيام مشرق» الذي ترجمه عبد الوهاب عزام ، ونشر في كراتشى عام ١٩٥١م ، ص ٩ - ١٠ ، وكذلك : أبو الحسن الندوى ، روائع إقبال ، ص ٢٦ .

- ثم أكمل وأشمل تعريف بتسلسل تاريخى لمؤلفات إقبال جميعاً في كتاب أحمد معوض ، العلامة محمد إقبال ، حياته وآثاره ، ص ٢٢١ - ٣١٧ .

(٢٠) عبد الوهاب عزام ، محمد إقبال ، سيرته وفلسفته وشعره ، ص ١٢٤ ، وكذلك أحمد معوض ، العلامة محمد إقبال ، ص ٢٢٦ - ٢٢٩ .

(٢١) Riaz Hussin, Igbal, Poer and His Politics., p.v.

(٢٢) راجع مقدمة إقبال في الطبعة العربية (تجديد التفكير الدينى في الإسلام) ط (٢) ، ص ٢ ، وكذلك كتاب أحمد معوض ، المرجع السابق ، ص ٢٥٨ - ٢٦١ وفيه تفصيل لطبعات وترجمات الكتاب وتواريخها في اللغات المختلفة .

(٢٣) راجع كتاب أحمد معوض ، المرجع السابق ، ص ١١١ ، وكتاب ولفرد كانتول سميث W.C.Smith بعنوان : Modern Islam in India, Lahore, 1943, pp.123 -155 .

(٢٤) انظر مقالة الدكتور إحسان حقى الشامى كتاب الاعلام الخمسة للشعر الإسلامي ، ترجمة محمد حسن الأعظمى والصاوى شعلان ، تحقيق مصطفى غالب ، بيروت ١٩٨٢م ، ص ١٣٧ - ١٤٠.

(٢٥) راجع كلمة سيادة توحيد أحمد في مؤتمر إقبال بدمشق عام ١٩٨٥م ، (نداء إقبال ، دمشق ١٩٨٦م) ص ٦ ، وكذلك مقدمة إحسان حقى لترجمة كتاب إقبال «يا أمم الشرق» دمشق ١٩٨٨م ، ص ٩ .

(٢٦) حول هذه التطورات راجع كتاب خليل عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١٨ - ٢٨ ، وكذلك أحمد معوض ، المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١٣٢ ، وكذلك :
Panikkar, K.M., Asurvery of Indian History Bambay, 1947, p. 246.

(٢٧) انظر كتاب روبرت أمرسن ، من الاستعمار إلى الاستقلال ، ترجمة نقولا الدر ، الدار الشرقية للطباعة ، بيروت ، ص ٤٠٦ - ٤٠٨ و وكذلك المرجعين السابقين .

(٢٨) أحمد معوض ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ ومابعدها ، وكذلك :
Nehru, Jawaharlal, An Autobiography, London, 1941, pp. 460-466.

(٢٩) أحمد معوض ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ - ١٣٤ .

(٣٠) Riaz Hussain, Igbal, Poet and his Politics, p. 70.

(٣١) Ibid. p. 28 .

(٣٢) أحمد معوض ، المرجع السابق ، ص ١٤٣ - ١٥٤ .

(٣٣) Riaz Hussain, op. cit. pp. 60 - 63 .

(٣٤) Ibid., pp. 63 - 46., Bilgrami, H.H., Glimpses of Igbal's Mind and Thought, Lahore, 1966 .

(٣٥) Ibid., pp. 65 - 66 .

(٣٦) Ibid., pp. 71 - 76 .

(٣٧) Vahid, Saiyid., Thoughts and Reflections of Igbal. Lahore, 1964, pp. 161 - 194 . حيث نص الخطاب بالانلجيزية ...
وكذلك أنظر نصاً مترجماً بكتاب علي حسون : فلسفة إقبال ، ص ١٩١ - ٢٠٥ .

(٣٨) راجع تحليلات وتعليقات بكتابى أحمد معوض ، السابق ، ص ١٦٤ - ١٧٢ ، Riaz Hussain, op. cit. pp. 77 - 79 .

(٣٩) Riaz Hussain, op. cit. p. 76 - 80 .

(٤٠) وكذلك أحمد معوض ، السابق ، ص ١٧١ - ١٧٩ . Ibid, p. 84 - 85 .

(٤١) Riaz Hussain, op. cit. p. 90 - 92 .

(٤٢) أحمد معوض ، السابق ، ص ١٨١ - ١٨٥ ، نقلاً عن خطاب إقبال بالجامعة الوطنية بلندن في ١٩٣٢/١١/٢٤م .

(٤٣) راجع : Riaz Hussain, op. cit. pp. 144 - 145 .
وأحمد معوض ، السابق ، ص ١٩٠ - ٢٠٠ ، الجدير بالذكر أن إقبال لم يستعمل قط إسم (باكستان) وإنما يرجع الاسم إلى المستر رحمت علي (من لاهور) الذي ذكره في كتيب شهير بعنوان «الآن .. أو إلى الأبد» المنشور في كمبردج عام ١٩٣٣م .